[29] ثمة مثل معروف يقول: "إنّ َ الناس عبيد الأِحسان". ورد نفس هذا المعنى تقريباً في حديث عن أمير المؤمنين الإمام علي ((عليه السلام)): "الإنسان عبد الاِحسان"(1). ونقرأ في حديث عن نفس الإمام "بالإِحسانِ تملك القلوب"(2). وفي حديث عن نفس الإمام أيضاً "وأفضِلْ على من شِئتَ تكن أميره"(3). وجذور كل هذه المفاهيم في حديث الرسول ((صلى ا عليه وآله وسلم)) إذ يقول: "إن ا جعل قلوب عباده على حب من أحسن إليها وبغضِ مَنْ أساء إليها"(4). والخلاصة هي أن هنالك حقيقة تقول: إنّ َ الذي يسدي خدمة لشخص آخر أو ينعم عليه نعمة فسيكون محطاً لعواطفه، ويكون هذا الآخر محباً لصاحب الخدمة والنعمة، يحب أن يتعرف عليه تماماً ويشكره، وكلما كانت هذه النعمة أهم وأوسع، كان تحريك العواطف نحو "المنعم" و "معرفته" أكثر. ولهذا جعل علماء علم الكلام (العقائد) مسألة "شكر المنعم" ومنذ القِدَم إحدى المحفزات على التحقيق حول الدين ومعرفة ا. ولكن يجب الانتباه إلى أن "شكر المنعم" هو دستور عاطفي قبل أن يكون حكماً عقلياً. نختم هذه الاشارة ببيت شعر لأبي الفتوح البستي الشاعر العربي المعروف: أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ***** فطالما استعبد الإنسان إحسانُ بعد هذه الأشارة ننتقل إلى القرآن ونستمع خاشعين إلى الآيات أدناه: 1 ـ (وَاُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأبْصارَ وَالأفئدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ)(1). 2 ـ (وَهُوَ الَّذِيْ سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيْهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ)(2). 3 ـ (فَكُلُوا مِمّا رَزَقَكُمُ اُ حَلالا طَيِّبَاً وإشْكُرُوا نِعْمَةَ اِ إنْ كُنْتُمْ إيّاهُ تَعْبُدُوْنَ)(3). * * * .

جمع الآيات وتفسيرها: تتحدث الآية الأولى عن أهمية النعم الإلهية لتحرك في الناس حس الشكر وتدعوهم عن هذا الطريق إلى معرفة "المنعم". إنّ َ الحديث عن النعمة وسيلة للمعرفة يتحدث القرآن عن "العين" و "الأذن" و "العقل": (واُ الّ َذي أخْرَجَكُم مِنْ بُطُونَ اُمَهاتَكُم لا تَعْلَمُوْنَ شَيئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصارَ وَالاْفْئِدَةَ). فعن طريق السمع تتعرفون على العلوم النقلية ومعارف الآخرين. وعن طريق البصر ومشاهدة أسرار الطبيعة وعجائب الخلقة تتعرفون على العلوم التجربية، وعن طريق العقل تتعرفون على العلوم العقلية والتحاليل المنطقية. ومع ان هذه المواضيع الثلاثة معطوفة على بعضها في هذه الآية بالواو ولا تعني بالضرورة الترتيب، إلاّ أنهُ ليس من

المستبعد أن يكون هذا هو الترتيب الطبيعي لها. لأن الإنسان لا يمتلك القدرة على النظر والمشاهدة إلى حدود فترة بعد ولادته، ولأنه معتاد على الظلام فهو يخاف من النوع ويغلق عينيه إلى مدة. في حين أن الاذن تسمع أول الأصوات. ومن الواضح أن القدرة العقلية والتمييز والشعور تحيى في الإنسان بعد السمع والبصر، خاصةً وأن "الفؤاد" كما يصرح أرباب اللغة بمعنى "العقل الناضج العميق" ولا يفيد أية مرحلة بسيطة من العقل، وطبعاً فإن مثل هذا الشيء يظهر بعد ذلك. فضلا عن ان الآية أعلاه يمكن أن تكون إشارة إلى حقيقة أن الوصول إلى "الكليات العقلية" يأتي بعد العلم بـ "الجزئيات" عن طريق الحس. وعلى كل حال، فالآية أعلاه تصرح أن الهدف من إسداء هذه النعم هو تحريك حس الشكر في البشر، والذي يدعوهم بالنتيجة إلى محبة الخالق ومعرفة ا وإطاعة أوامره. وبالطبع فإن هذا لا يتناقض مع كون بعض العلوم الإنسانية علوماً فطرية لأن المعلومات الفطرية عند الولادة موجودة في طبيعة الإنسان على شكل الاِستعداد والقابلية، وليس لها طابع الفعلية، ثم تثمر بعد ذلك. * * *